آفة المزاح

فاتح عسّاف*

تعمد نظريّات علم الاجتماع وعلم النفس إلى تنظيم العلاقات الإجتماعيّة على أسس من الإحترام المتبادل بين الفرد والجماعة من جهة وبين المجتمعات من جهة أخرى . وهذا الإحترام المتبادل يوفر نوعاً من الرّضى للفرد ، ويدرك بأنه مقبول من الآخرين ، وهذا يوفر لديه دوافع الإنتماء لهذه الجماعة ، ويعمل على توثيق علاقاته الوديّة معها ممّا يعزّز لديه الحسّ بالولاء لها (1).

إن تولد الشعور بالرضى يستمر طالما بقي الفرد متوائماً مع الجماعة المحيطة به ، بحيث لاتتعارض مصالحه مع مصالحها ، ولا مصالحها مع مصالحه ، وبالتالي لايحدث مايمكن أن يصيب هذه العلاقة أي توتر نتيجة خللٍ ما في تواصل واستمرار العمليّة الإجتماعيّة والتي تقوم أساساً على الإحترام المتبادل ، وعندها لن يحصل ماقد يفسد هذه العلاقة بين الفرد وجماعته ، ماينجم عنها نوع من التفسّخ في طبيعة البنية الإجتماعيّة ، ويؤدّي بالتالي إلى تراجع دور الفرد في العمل على تقوية علاقاته مع الآخرين ، وقد يؤدي ذلك إلى انسحاب الفرد من تأدية دوره الإجتماعي ، وقد يؤدي به إلى العزلة .

يعتبر المزاح أحد الأسباب التي قد تؤدّي لحدوث خلل في طبيعة العلاقات الإجتماعيّة بين الناس لما له من نتائج سلبيّة على الأطراف التي تمارسه باعتباره سلوكاً قد يؤدّي إلى نشر البغضاء بين أفراد المجتمع .

لقد تنبّه علماء المسلمين الأوائل ومنهم الغزالي (450 – 505) هجريّة إلى الدور السلبي الذي سينجم عن ممارسة الناس هذا الفعل ، وقد أدّى به هذا لاعتبار المزاح من « الآفات والمهلكات التي تنتج عن سوء استعمال اللسان، فاللسان «نعمة من نعم اللّه العظيمة»(2) ، إذ بواسطته يمكن للإنسان أن يعبّر عمّا يريد من خير وشر ، وكفر وإيمان ، لذلك يتوجّب على الإنسان أن يقيّد لسانه ، ولايسمح له بالإنطلاق خارج حدود الشّرع ، لأنّ هذا قد يسيء لنفسه و للآخرين ، ولايجب إطلاق اللسان « إلاّ فيما ينفعه في الدّنيا والآخرة ، ويكفه عن كلّ مايخشى غائلته في عاجله وآجله »(3) .

واللسان هو صلة وصل بين الإنسان والآخرين ، وهو أي الإنسان لايحتاج إلى جهد في إطلاقه ، فهو « أعصى الأعضاء على الإنسان ، فإنه لاتعب في إطلاقه ولامؤنة في تحريكه ، وقد تساهل الخلق في الإحتراز من آفاته وغوائله.

---

* جامعة فيلادلفيا–الأردن

والحذر من مصايده وحبائله ، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الناس »(4) ، ولهذه الأسباب يجب على الإنسان أن يكون حذراً حين يحادث الآخرين ، بحيث يراعي مشاعرهم ، وعدم التسبّب بإحراجهم ، بل وإيذائهم ، وهذا ما يؤكّده حديث الرسول (صلى الله عليه وسلّم) « من صمت نجا » (5) ، والمقصود بالصمت هنا هو عدم الحديث مع الآخرين إذا كان يفهم منه أو يمكن أن يتم تفسيره على نحو غير المقصود منه .

أدرك الغزالي دور اللسان وخطورته في حيا الإنسان ، ، فلا عجب أن يفرد له فصلاً خاصّاً في أحد أهم كتبه تحت عنوان « كتاب آفات اللسان ، وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين » (6) . وآفات اللسان عند الغزالي هي عشرون آفة ، ولكن الآفة العاشرة هي « المزاح » موضوع هذه الدراسة .

تميل النفس البشريّة إلى حالة من الإنبساط والتساهل في العلاقات في ما بين الناس ، ويسعى الإنسان إلى التقرّب من الآخرين من خلال إظهار الود لهم ، ولكن قد يخطىء اللسان في التعبير عمّا يريد أن يوصله للطرف الآخر وذلك من خلال الخلط بين الجد والهزل ، وهذا قد يؤدّي إلى إيذاء الطرف الآخر .

والمزاح هو شكل من أشكال التواصل بين الناس ، وقد يحقّق نوعاً من الود بينهم ، ولكن لايجوز الإفراط فيه أو المداومة عليه ، لأن المداومة عليه تعني الإستمرار في اللعب والهزل ، والهزل يؤدي للضحك « وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضّغينة في بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار » (7) . وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) « لاتمار أخاك ولاتمازحه » (8) ، وفي هذا يؤكّد الرسول على أن تكون العلاقة بين الناس قائمة على الجد وليس على النفاق والهزء والسخرية .

تقتضي طبيعة العلاقات البشرية وجود التواد والتراحم ، ولابد للناس عندما يجتمعون من توفير هذا الود ، ولو كانت حياة الناس تقوم على الجد بشكل دائم لافتقد الناس شيئاً في هذه الحياة قد يلطف عليهم شجون هذه الحياة ، والمزاح يؤدّي إلى تبادل الأحاديث والأقوال ، بل والنكات أحياناً ، وهذا يخلق جوّاً من المرح بينهم ، ولكن لايجب الإستمرار فيه إلى ما لانهاية ، لأن في استمراره مزيداً من الهزل وإسقاط للمهابة والوقار ، فقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): « إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً »(9) .

كان رسول الله يمزح ولكن المزاح القائم على الصدق ، أما مزاح الكذب والمبالغة فقد نهى عنه ، وإذا كان المزاح يحقق الإنبساط بين الناس ولكن لفترة محدودة ودون التعرّض للآخرين فذاك جائز ، أما إذا كان الغرض من المزاح هو إضحاك الناس كيفما كان فهذا هو المنهي عنه (10). إذ لايجب على من يمزح أن يهدف إلى إرضاء فئة ضد فئة أخرى ، ولإضحاك جماعة من الناس على حساب جماعة أخرى عن طريق السخرية والإستهزاء ، ويعرّف الغزالي السّخرية بأنها « الإستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه من يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء»(11) .

تبرز دعوة الغزالي للناس بالتوقف عن المزاح الذي يهدف الإساءة للآخرين باعتبارها دعوة ذات طابع أخلاقي تربوي، إذ يجب الإمتناع عن كل ما من شأنه أن يوقع البغضاء بين الناس ، وبالتالي المحافظة على العلاقة التي تقوم على الإحترام المتبادل بينهم ، ويتجنّب كل مايمكن أن يكسبه عداوة الآخرين ، والتوقف عن أي سلوك يمكن أن يفهم أنه يحمل في طيّاته شيئاً مهما كان صغيراً من الهزء والسخرية من الآخرين ، مما قد يؤدي إلى تحقيرهم أمام الآخرين . لقد خلق الله تعالى البشر متساوين ، ولايحق لأحد أن يعطي نفسه الحق بممارسة الشّعور بالتفوّق على الآخرين ، أو أن يقوم بأي فعل فيه إساءة للآخرين وذلك « بأن يضحك على كلامه إذا تخبّط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوّشة كالضحك على خطّه وعلى صنعته ، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيراً أو ناقصاً لعيب من العيوب » (12) .

وعندما يتصدّى الإنسان للسخرية من الآخرين عن طريق المزاح فكأنه يريد أن يثبت أمام الملأ أنه هو الكامل الذي لاعيب فيه ، وأن العيب دائماً في غيره ، وأنه منزّه عن الخطأ، ولو حدث وتمّت مواجهته من قبل الآخرين بعيوبه فإنه سيلجأ إلى أكثر من طريقة دفاعيّة وهجوميّة ليحمي بها نفسه منهم ، ومن هذه الطرق وأهمّها هي البدء بالسخرية منهم ، وذلك بدلاً من العودة إلى داخله ومراجعة نفسه ، والنظر إلى كلام الناس بنوع من الجديّة، وليس بالهرب من خلال هجومه على الآخرين . والإعتراف بالذنب فضيلة ، ولكن لو أردنا أن نعد عدد المرّات التي سمعنا فيها كلمة « آسف » من الآخرين لوجدنا أنها من النوادر ، هل معنى هذا أننا لانخطيء ، الواقع أننا جميعنا نقع في الخطأ ولكن الكبرياء الزائفة للإنسان ترفض أن تضعه في موقع المخطيء ، ولو كان يعلم في داخله أنه « قد » أخطأ فإن الخطأ بالنسبة له مردود وبالنسبة لغيره مرفوض .

لقد حثّ القرآن الكريم الإنسان على مراجعة نفسه

والإعتراف أنه لايختلف عن الآخرين في إنسانيّته ، فهو مثل الآخرين ويتساوى معهم في هذه الحياة ، وأعاد الإنسان إلى حجمه الطبيعي أمام الآخرين ، فهو ليس أفضل منهم ، ولايحق له أن يمارس عليهم أي شكل من أشكال التفوّق ، إذ لاتوجد له في إنسانيّته ميزة له على الآخرين ، فقد قال تعالى { ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا } (13).

ولنا أن نعلم من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى يذكّر الإنسان بضعفه تجاهه وتجاه الناس ، فمهما بلغ الإنسان من قوّة وجبروت وتفوّق فإن الله تعالى يتحدّى هذا الإنسان أن يهزّ الأرض تحت وقع قدميه ، والله تعالى يعلم والإنسان كذلك يعلم أن الأرض لن تهتزّ تحت وقع قدميه لأنّه أقل شأناً من ذلك ، ومهما تطاول الإنسان على الإنسان فإنه سيبقى ذلك الإنسان الضّعيف ، إذ مهما علت به المراتب ، ومهما كانت الدرجة التي وصل إليها في هذه الدنيا ، فأن الله يذكّره بأنهّ لاشيء يذكر أمام عظمة الخالق ، لذلك ينهى الله تعالى الإنسان عن إظهار كل مايمكن فهمه من الآخرين على أنه من علامات الخيلاء ، وهذه تذكرة من الله للإنسان للتواضع ، وعدم النظر للآخرين بشيء من الكبر ،إذ مهما كبر الأنسان فهو لاشيء أمام قوّة الله تعالى .

مازالت دعوة الغزالي لترك المزاح تجد صدىً لها في أيّامنا ، ومازلنا في عصرنا نطلق العنان لألسنتنا تعصف بالناس قدحاً وذمّاً ، ومازالت السخرية من الناس طبعاً من طباعنا، ومازلنا نرى كل الذين من حولنا جهلة لايعرفون شيئاً ، وننسب لأنفسنا كل العلم والمعرفة ، ومازلنا لانضيّع فرصة إلا ونسعى من خلالها للحط من قيمة الآخرين من خلال هدم مايبنون وذلك بتسفيه آرائهم وعدم ابداء الإحترام لمواقفهم بغض النظر ماإذا كانت هذه الآراء تعجبنا أو لاتعجبنا .

وقد حث الغزالي أحد تلامذته على الإلتزام باحترام شخصيّة الآخر على مبدأ الإحترام المتبادل بقوله «كلما عملت بالناس اجعله كما ترضى لنفسك منهم ، لأنه لايكمل إيمان عبد حتى يحب لسائر الناس مايحب لنفسه» (14).

الـــهـــــوامش

1 . ميشيل أرجايل ، علم النفس ومشكلات الحياة الإجتماعيّة ، ترجمة عبد الستّار ابراهيم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1982 ، ص : 39

2 . أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج3 ، عالم الكتب ، دمشق ، د . ت ، ص : 92

3 . المرجع السابق ، ص : 93

4 . المرجع السابق ، ص : 93

5 . المرجع السابق ، ص : 93

6 . المرجع السابق ، ص : 92

7 . المرجع السابق ، ص : 110

8 . المرجع السابق ، ص : 110

9 . المرجع السابق ، ص : 110

10 . المرجع السابق ، ص : 110

11 . المرجع السابق ، ص : 114

12 . المرجع السابق ، ص : 114

13 . القرآن الكريم ، سورة الإسراء ، آية 36 ، 37 ،38

14 . أبو حامد الغزالي ، أيها الولد، دار الكتب العلميّة ، بيروت، 1986، ص : 168